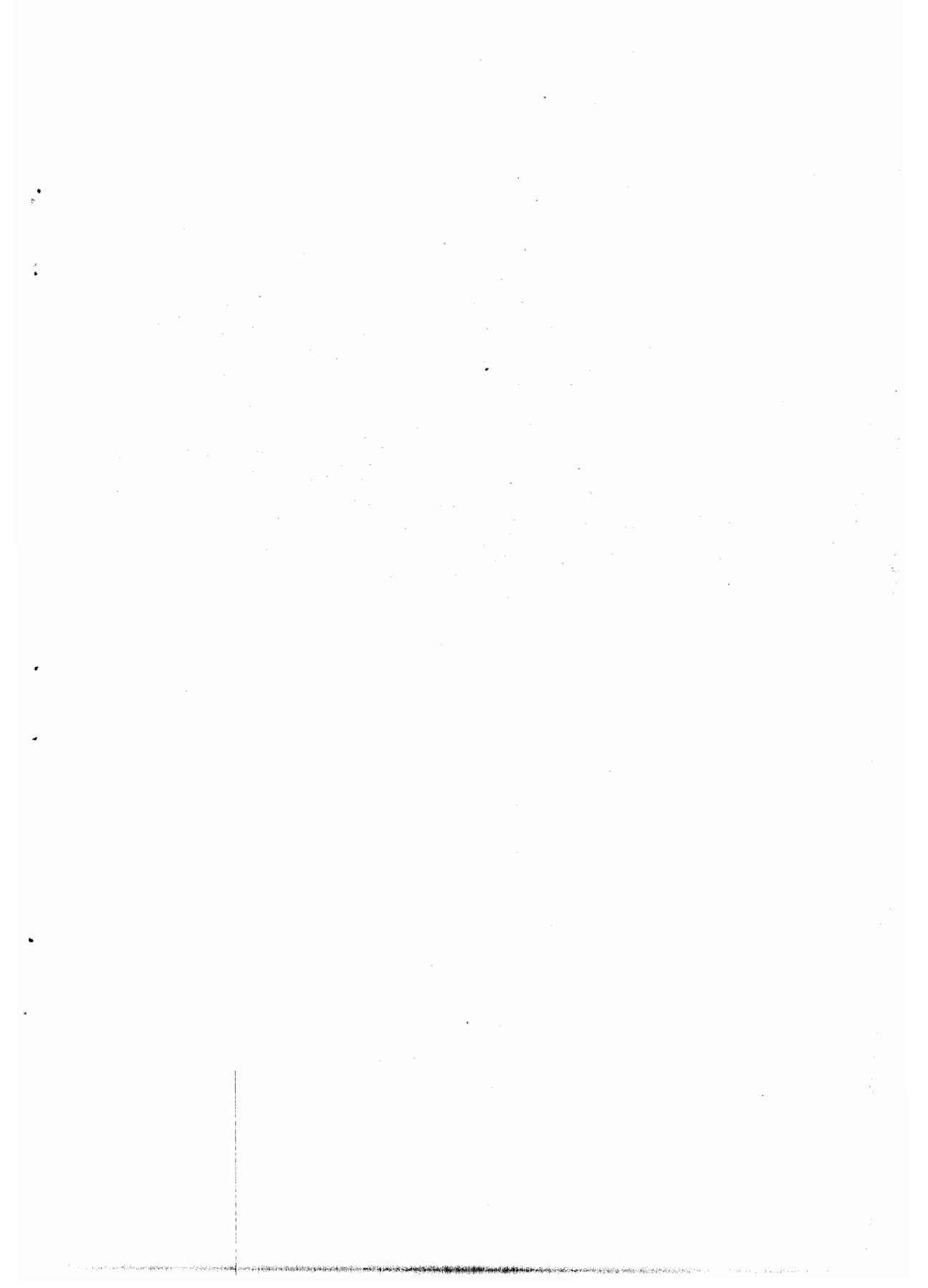


الملك عبد العزيز آل سعود
وتوحيد الجزيرة العربية

بحث مقدم من

أ.د / أحمد الشامي

وكيل كلية الآداب جامعة الزقازيق



لم يكن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مبالغاً حينما قال كلمة حق ولقب عدواً له ولدولته وهو الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل يلقب صقر قريش، لأن هذا الأمير كان يتمتع بصفات من أهمها: الشجاعة النادرة، والدهاء في السياسة، والحنكة والخبرة في ميادين القتال والنزال، والقدرة الفائقة في تشييد المدن وإقامة الدول.

وحينما سئل أبو جعفر المنصور لماذا لقب عبد الرحمن الأموي بهذا اللقب قال: لأن عبد الرحمن خرج طريداً، ودخل المغرب وحيداً، ثم شيد دولة وأقام ملكاً. ولم يكن المؤرخون المحدثون مغالين كذلك حينما لقبوا عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بلقب صقر الجزيرة نظراً لما حياه الله تعالى به من صفات تكاد تكون مطابقة لما تحلى به عبد الرحمن من صفات، ولما قام به من أعمال.

والحقيقة أن لتربية عبد العزيز آل سعود ونشأته والأسلوب الفريد الذي اتبعه والده الإمام عبد الرحمن معه دور كبير وخطير في اكتسابه هذه الصفات، يضاف إلى ذلك أثر البيئة الصحراوية القاسية التي صقلت عوده، والظروف السياسية والدولية المتشابكة والمعقدة، وتفهمه المتعقل لهذه الظروف، وتوقعاته الصائبة لما يترتب عليها من نتائج، قد لعب كل ذلك دوراً بارزاً وخطيراً في نجاح عبد العزيز آل سعود في توحيد مدن متنافرة، وإمارات متناحرة، وضم شتات قرى متباعدة متناثرة، وتكوين دولة موحدة أضحت ذات ثقل محسوس في الأحداث التاريخية والسياسية، ولها كلمة مسموعة وموزونة بين الدول الإسلامية والعربية، ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الرجل الذي بذل كل حياته وقدم زهرة شبابه ثمناً لإقامة هذه الدولة وإعلاء شأنها حتى تأخذ وضعها التاريخي والسياسي والحضاري مع شقيقاتها من الدول العربية والإسلامية التي سبقتها.

وسوف أقسم عملية توحيد الجزيرة العربية على أيدي عبد العزيز بن سعود إلى ثلاث مراحل هي:

١- استرجاع إمارة الرياض وتكوين إمارة نجد.

٢- ضم منطقة الأحساء وتكوين الإمارة الشرقية.

٣- ضم منطقة الحجاز وقيام المملكة العربية السعودية.

فإذا تناولنا المرحلة الأولى نجد أن عبد العزيز آل سعود بدأ جهاده الكبير لتحقيق الهدف العظيم وهو في سن العشرين عندما استأذن والده الإمام عبد الرحمن في العمل على استرداد إمارته في الرياض، لأنها ملك آبائه وأجداده، وكان الإمام عبد الرحمن قد أجبر على ترك إمارته في الرياض نتيجة لضربات وهجمات آل الرشيد أصحاب إمارة حائل، فتوجه بأسرته إلى الكويت ونزل مهاجراً عند الشيخ مبارك الصباح أميرها.

خرج عبد العزيز آل سعود في جمع قليل من أصحابه بعد أن قدم الشيخ مبارك له بعض المساعدات العسكرية والمادية، ونجحت محاولة عبد العزيز آل سعود ودخل الرياض سنة ١٣١٨هـ ومكث بها بضعة شهور، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على حصنها، فأضطر إلى العودة للكويت حتى يكمل ما يحتاج إليه من أعداد وأسلحة وميرة، خاصة بعد ما أصيب الشيخ مبارك وأتباعه بالهزيمة في وقعة الصريف.

عاود عبد العزيز آل سعود ومعه مجموعة من أصحابه الزحف على الرياض في العام التالي، وفي طريقه أحرز بعض الانتصارات على القبائل الموالية لآل رشيد مثل قبائل مطير والدواسر وقحطان، واستولى منهم على شيء كثير من المؤن والعتاد واستعان به في هجومه وحروبه ضد الرياض. ولجأ أمير حائل (ابن رشيد) إلى حلفائه العثمانيين الذين وضعوا حامية تركية في الأحساء لتوقف زحف عبد العزيز آل سعود ومن انضم إليه من هذه القبائل، وفشل العثمانيون،

وتمكن عبد العزيز ورفاقه الذين لازموه من الوصول إلى الرياض في ٤ شوال سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م، ودخلوا المدينة في ظلمة الليل البهيم، ثم هاجموا أميرها (عجلان)، الذي كان ابن الرشيد قد عينه عليها، في الصباح الباكر وقتلوه، ولم تلبث أبراج الحصن أن استسلمت بعد قتال سريع ومرير، كما أسرع أهالي الرياض بالالتفاف حول القائد المنتصر عبد العزيز وأعلنوا طاعتهم له، وانضمامهم وتضامنهم معه، وبايعوه بالإمارة عليهم، وبذلك استرد إمارة والده الإمام عبد الرحمن بهذا الهجوم الخاطف، وبهذا التدبير المحكم، وهذه الجرأة النادرة التي ربما يراها البعض اندفاعاً وتهوراً.

أخذ عبد العزيز آل سعود في إعادة تحصين إمارة الرياض بمساعدة الأهالي ومشاركتهم، وأعاد والده الأمير عبد الرحمن عليها، وقرر أمير نجد عبد العزيز بن متعب أن يسترد الرياض ويعيدها لسلطان ونفوذ آل رشيد فهاجمها، ولكنه هزم هزيمة منكرة، وانتهز البطل عبد العزيز آل سعود هذه الفرصة وعمل على ضم المدن والقرى القريبة من الرياض إليه، فقوي مركزه وثبت أقدامه في إمارة الرياض، ولكنه لم يكتف بذلك بل أرسل دعائه إلى حائل والقصيم وهما بؤرة تركز آل رشيد ليشيروا نفوس أهاليها ضد حكامهم، ويشنوا حرباً نفسية مؤثرة عليهم، ويدعوهم إلى الانضمام إلى عبد العزيز آل سعود، ونجح عبد العزيز فيما كان يهدف إليه، فكتب أهالي هذه البلاد سرّاً إليه يعلنون ولائهم وطاعتهم وانضمامهم إليه متى جاء إلى مدنهم.

وهكذا بنى عبد العزيز آل سعود سياسته ووضع خطته لمواجهة خصومه على ما يشبه الحرب الخاطفة تارة والحرب النفسية (الباردة) تارة أخرى.

وعاود ابن متعب محاولته لاسترجاع الرياض ولكنه أخفق، في الوقت الذي نجح فيه عبد العزيز آل سعود وأتباعه من الاستيلاء على عنيزة وبريدة وما حولها من قرى بعد معركة حامية وسريعة أصيبت فيها قوات ابن متعب بالهزيمة

والتشتت، وكانت القبائل الساكنة جنوب نجد قد انضمت إلى عبد العزيز آل سعود، فأصبحت نجد كلها في قبضة يده وتحت سلطانه وطاعته، باستثناء مدينة حائل مقر إمارة آل الرشيد.

استعان ابن متعب بجنود وعتاد وميرة من العثمانيين، وانضم إليه كثير من الأعراب المتنقلين في الصحراء طمعاً في الأسلاب والمغانم المرتقبة بعد القتال، وتحرك ابن سعود بمن معه لمواجهة هذه الحشود، ودارت بين الفريقين معركة خاطفة عرفت باسم (وقعة البكيرية) ولم تمل كفة النصر إلى أحد الفريقين، ومع ذلك فقد هرب ابن متعب وحشوده وتركوا معسكرهم مشحوناً بالعتاد والمؤن فاستولى ابن سعود عليها بدون عناء، ووزعها على جنوده ليثير حماسهم للقتال، وليزيد من تمسكهم بقيادته وإمارته عليهم.

ولم يترك ابن الرشيد الفرصة لعبد العزيز آل سعود ليدخل البكيرية، فأرسل على وجه السرعة سلطان بن حمود آل رشيد في جموع من الجند وأمره بالاستماتة في الدفاع عن المدينة، والتقى الجانبان بالقرب من مشارف البكيرية واشتعلت نار الحرب وسرعان ما اندحرت قوات ابن الرشيد، وأحاط بها الموت من كل جانب، ودخل عبد العزيز آل سعود مع قواته البكيرية ظافراً، فانضم أهلها تحت لوائه وأعلنوا طاعتهم.

تتبع عبد العزيز آل سعود بجيشه المنتصر فلول المنهزمين من جيش آل رشيد، فوصل إلى الخبراء وهاجمهم فانفرط عقدهم، وتضعض جندهم، وفروا هارين تاركين جرحاهم وقتلاهم وقصدوا الرس فنزلوا في جنوبها عند مكان يسمى (الشنانة)، فضرب عبد العزيز بقواته الحصار على (الرس) وطلب من أهلها الدخول في طاعته فرفضوا، فأمرهم بوابل من نيران مدافعه، وشدد الحصار عليهم، ولكنهم صبروا وصابروا وصمدوا في مقاومتهم، ولم يستسلموا على الرغم من كثرة قتلاهم وسقوط أميرهم فضربوا بذلك المثل في الثبات والتضحية

والفداء. ولكنهم اضطروا إلى السماح لعبد العزيز وقواته بالدخول إلى بلدهم وتحصنه معهم بها، واشتعلت نيران الحرب ثانية بين ابن سعود وابن الرشيد واستمرت ثلاثة شهور ولم يحرز أي من الفريقين نصراً حاسماً على صاحبه، ودخل فصل الربيع وهطلت الأمطار وبدأ البدو ينسحبون من الجيش لتفشي الأمراض وانتشار الأوبئة فيهم، ولأن أمد الحرب قد طال وهم قد ملوا البقاء، ولا بد لهم من العناية بأسرهم وذويهم وماشيتهم وزروعهم خلال هذا الوقت من العام.

أحس عبد العزيز بن سعود بما يجري بين البدو في جيشه، فلجأ إلى عبقرية الفذة، وحيله البارة، ودهائه المذهل، حتى لا يخرج عليه رجل من أتباعه، فنأدى بصوته الجمهوري على رجل من أهل ثقته هو فهد الرشودي وقال له أمام كل جنوده: اذهب يا فهد إلى ابن الرشيد وصالحه على أن يرجع كل منا هذا الفصل، أو صالحه على ما يريد، فالربيع قد أقبل، وكل من في الجيش بدو يريدون انتجاع الطلا، وفلاحة الأرض طلباً للزراع والحصاد.

والحقيقة أن ابن سعود كان يهدف من وراء هذه المناورة السياسية والتظاهر بطلب الصلح أن يبذر بذور الفتنة بين ابن الرشيد وجنوده، حينما يعرفون أن ابن سعود مقدر لمصلحتهم، ويخشى عليهم الضرر، وهو بنفسه يطلب لهم أن ينصرفوا لفلاحة أرضهم وغرس زرعهم، وقد بنى ابن سعود تقديره لهذا الأمر لتأكده من أن ابن الرشيد لن يقبل بالصلح، وأنه عنيد مع نفسه ومع أتباعه، وسوف تقع الفرقة لا محالة كما توقعها بينهم.

عاد فهد الرشودي وأعلن على الجميع رفض ابن الرشيد للصلح، وتوعده ووعيده وتهديده بضرب بريدة وعنيزة والرياض وإذلال أهاليها، فاستشاط أتباع ابن سعود غضباً، وغلت الدماء في عروقهم، وثار نفوسهم، وأعلنوا جميعاً عن بقائهم ومواصلة القتال ضد ابن الرشيد، وبذلك تحقق لابن سعود ما كان يهدف

إليه، فقد هددت قبائل شمر أتباع ابن الرشيد بالانسحاب والرحيل إلى حائل فاضطر أميرهم إلى الموافقة على طلبهم، وأخذوا يستعدون للرحيل، وانتهر ابن سعود هذه الفرصة الذهبية وهاجم ابن الرشيد وأتباعه في ظلمة الليل وأخذهم على غرة وقتل منهم جموعاً كثيرة، ولكن المعركة لم تنته بنصر لأحد الفريقين.

سارع عبد العزيز بن سعود ورجاله في السير إلى (الجوعى)^(١) بعد أن شحذ همهم، وسار أمامهم حافي القدمين ليتخذوه رمزاً وأسوة لهم، وكان ابن الرشيد قد أصاب قصر ابن عقيل في هذه المدينة وكان به حامية لابن سعود فتهدمت بعض جوانبه، ومع ذلك بقيت الحامية تزود عن القصر ولم تتركه، ولم يكد ابن سعود يصل إلى الجوعى حتى أمر ابن الرشيد قواته بالرحيل، ووجدها ابن سعود فرصة مواتية له، فانقض ومن معه على ابن الرشيد ومن معه من الأتراك والأعراب في وادي (الرمة) وفرض ابن السعود على عدوه الحرب التي خطط لها والتحم الجيشان في معركة حامية الوطيس في الثامن عشر من رجب سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٥م، وكادت كفة النصر تميل إلى الأتراك وابن الرشيد في أول الأمر، ولكن ابن سعود اقتحم في جمع صغير أماكن عدوه، ووطئوا خيامهم وأبلى ابن سعود في هذه الموقعة بلاءً حسناً فقد تحطمت في يده عدة سيوف من شدة الضربات التي كان يهوي بها على رقاب خصومه، وأحس ابن الرشيد أن الموت يقترب منه بعد ما ضيق عليه ابن سعود دائرة القتال، ففر هارباً تاركاً معداته الحربية وذخائره ومؤنثته وميرته ناجياً بحياته ومعه قلة من أتباعه. وتمكن عبد العزيز بن سعود وجيشه من دخول معسكر ابن الرشيد، وغنموا كل ما كان فيه من أسلحة وعتاد وأموال وآلاف من الجمال، ولم يخرج عبد العزيز القائد المنتصر من المعسكر إلا بعد أن وزع كل هذه المغانم على جنوده دون أن يصيب منها شيئاً لنفسه، وهكذا تكون عظمة النفس دافعاً إلى إثارة الجند بنتائج النصر ليزدادوا حباً لقائدهم، وتمسكاً بقيادته، وإطاعة لأوامره، وبذلاً لأرواحهم فداء له وتحقيقاً لمنهج.

(١) تبعد عن الرس سبعة فراسخ.

انقضت شهور سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م، وابن الرشيد يتنقل بين قرى ومدن القصيم حتى أقبلت سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، فخرج إليه عبد العزيز بن سعود في ألف وستمائة رجل من المقاتلين يتتبع أثره ليرمي به بالقتل ويتخلص منه، ووصلته أخبار بأن خصمه عاد إلى روضة مهنا (في القصيم) بعد أن قتل فيها أربعين كهلاً مع أطفالهم، فتبعه ووصل في منتصف ليلة ١٨ صفر ١٣٢٤هـ / ١٣ أبريل ١٩٠٦م، وفوجئ ابن الرشيد بقوات ابن سعود تسد عليه منافذ الهرب، واندلعت نار الحرب سريعة بين الجانبين في ظلمة الليل، وكان الجو ممطراً راعداً شديد البرد واختلط الحابل بالنابل في خضم هذه الحرب، وسقط الكثير قتلى من الجانبين، وتكشفت الموقعة عن هزيمة مرة لأتباع ابن الرشيد نتيجة لمقتله حيث أوصله فرسه خطأً إلى حامل راية ابن سعود وهو يظن أنها ابنته فأمطره جنود عبد العزيز بوابل من نيران مدافعهم فأردوه قتيلاً ثم حزوا رأسه ورفعوها على رمح ليكف جنوده عن القتال، ويبدو أن عدالة السماء قد دبرت له القصاص في نفس المكان الذي قتل فيه الكهول مع أطفالهم في قرية مهنا.

وبهذا النصر حقق عبد العزيز بن سعود المرحلة الأولى من مراحل توحيد الجزيرة العربية فقد دانت نجد كلها إليه خاصة بعد أن أنهى حركة العصيان التي قام بها أبو الخيل أمير بريدة، في ربيع الأول سنة ١٣٢٦هـ / مايو ١٩٠٨م وإخضاعه الهتزازنه أهل (الحريق) سنة ١٣٢٧هـ / ١٩١٠م وأصبح هو أميراً على نجد.

المرحلة الثانية (ضم الأحساء):

تمكن عبد العزيز بن سعود من القضاء على نفوذ الأتراك العثمانيين في قلب الجزيرة العربية حيث قضى عليهم في المعارك التي انتهت بإخضاع مدن نجد كلها تحت طاعته، ولكن كانت في الأحساء (المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية) حامية تركية أخذت تعلن دائماً أن نجد ولاية عثمانية، وأن عبد العزيز بن سعود

يتول إمارتها باسمهم، فاضطر عبد العزيز بن سعود أن يقضي عليهم نهائياً حتى يبطل هذه المزاعم، وحتى يحفظ عليه انتصاراته التي ضحى كثيراً مع رجاله في سبيل تحقيقها وتوحيد مدن وقرى نجد تحت إمارته.

ساعدت الظروف التي خلقها الأتراك العثمانيون القائد المنتصر ابن سعود على استغلالها وتوجيه ضربة قاضية لتواجدهم في هذه المنطقة، حيث كان (الأتراك) على جانب كبير من الضعف وانعدم نفوذهم وسلطانهم على أهالي الأحساء، بل أصبحوا أداة طيعة في يد قبائل العجمان التي عاثت في الأحساء فساداً، فتطلع الأهالي إلى أمير نجد ابن سعود ليخلصهم مما هم فيه من عناء وألم.

تحرك عبد العزيز مع جموع من رجاله من الرياض في ربيع الأول سنة ١٣٣١هـ / م متجهاً إلى الأحساء، ولجأ إلى الحيلة والمناورة حتى لا يلفت نظر جمال باشا قائد الحامية إلى وجهته نحو الأحساء، وبدد مخاوف جمال باشا وتظاهر بأنه قدم لتموين جنوده وأنه سوف يعود إلى الرياض ولكن بمفرده، ولم يطمئن جمال باشا لما قاله عبد العزيز بن سعود، فبعث إليه رجلاً انجليزياً يسمى «Caerhard leachman» ليتجسس عليه، وتظاهر الرجل بأنه عالم جغرافي وأنه يريد مساعدته، وبفراسة العربي، وبصدق إحساس القائد الملهم أحس عبد العزيز بن سعود بأن جيرارد جاسوساً من قبل الأتراك، فأعاده إليهم ومعه خطاب توصية منه، بعد أن أفهمه أن خير من يساعده في هذا الأمر هم الأتراك أنفسهم.

عاد ابن سعود إلى الأحساء، وترك على (عين نجم) ولم يكن له في الأحساء أنصار سوى وكلائه أبناء القصبي ويوسف بن سويلم، فطلب منهم أن يدلوه على المكان الذي يصلح منه الهجوم على المدينة، فأخبروه، وبينوا له العقبات التي ستقابلها.

نظم عبد العزيز بن سعود جنوده، واختار منهم ستمائة رجل كلهم من الحاضرة

وفي منتصف ليلة ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣م، القى في رجاله كلمة حثهم فيها على سرعة السير والزحف، وعدم التعرض للنساء، عدم دخول البيوت، ثم تحرك بهؤلاء الرجال في صمت حتى وصلوا الجانب الغربي من سور المدينة، وهناك قسمهم ثلاثة أقسام، سير القسم الأول نحو الباب الجنوبي وأمرهم أن يقضوا على الحرس التركي وأن يستولوا على هذا الباب، وأمر القسم الثاني أن يتجه إلى بيت المنتصر (الحاكم) التركي ليأسروه، وأمر القسم الثالث بأن يوزعوا أنفسهم في مجموعات على أبراج السور وأن يتسلقوه مستعملين في ذلك الحبال وجذوع النخيل التي معهم والتي أعدها من قبل لذلك الأمر. تماماً مثلما فعل خالد بن الوليد سيف الله المسلول حينما وقف سور دمشق وحصنها عقبة أمام الفتح الإسلامي، فأمر رجاله أن يتسلقوا السور بسلام صنعت من حبال وخشب النخيل أتى بها من أحد الأديرة القريبة وبذلك تمكن المسلمون من فتح دمشق والاستيلاء عليها. ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه صقر الجزيرة بخالد بن الوليد، وما أصدق من أطلق عليه نابليون العرب.

دخل عبد العزيز ورجاله المدينة التي تركها الأتراك وتحصنوا في حصنها (قلعتها) تاركين مواقعهم ومراكز حراستهم، وصاح رجل من أتباع عبد العزيز: «أن الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن، والأمان لكل من لم يبد مقاومته أو يعتدي على الفاتحين» وسرعان ما انضم أهل المدينة إلى القائد المنتصر، ولم يلبث أفراد الحامية التركية المتحصنون في القلعة أن استسلموا مع قائدهم، فأعطاهم عبد العزيز الأمان وسمح لهم بالرحيل وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم وأسلحتهم كذلك، ولم تلبث مدينة القطيف أن دخلت في طاعة ابن سعود وانضمت إلى حكمه وبذلك ضم عبد العزيز بن سعود المنطقة الشرقية إليه بدون عناء وبدون قتال، وحقق الهدف الثاني من توحيد الجزيرة العربية تحت حكمه وسلطانه.

والحقيقة أن سقوط الأحساء كان إعلاناً واضحاً بأن قلب الجزيرة العربية

والمناطق الشرقية منها قد أصبحت تحت نفوذ وسلطان ابن سعود، وكان من الطبيعي أن يخاف أمراء العرب في المدن والمناطق الأخرى من اتساع نفوذه وازدياد عدد المنضمين تحت لوائه، خاصة بعدما رأوا بأنفسهم حسن معاملته لأتباعه وتسامحه وعفوه الكريم مع أعدائه وألد خصومه مما جمع حوله القلوب، فازداد لذلك عدد خصومه وتكاثروا، وتغير عليه بعض أصدقائه.

فترة الحرب العالمية الأولى:

اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى في تلك الفترة، ودخلت تركيا الحرب بجانب ألمانيا والنمسا والمجر ضد إنجلترا وحلفائها، ويدخل تركيا الحرب أصبحت الإمارات العربية التابعة لها هي الأخرى في حالة حرب ضد إنجلترا (هذه الإمارات هي: (الشام، والحجاز، واليمن، وعسير، ومصر، وغيرها).

وقف عبد العزيز بن سعود مترشاً لأنه لا يريد أن يزج بنفسه وبأهله في أتون حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ويرجع سبب ترشته إلى أن علاقته مع تركيا كانت قد تحسنت وكان على جانب كبير من الصداقة مع بريطانيا، ثم إن الأتراك لا يزالون على نفوذهم وقوتهم في أقصى شمال الجزيرة العربية (في العراق) وهم في الغرب كذلك (في الحجاز) ولا تزال بعض مناطق في قلب الجزيرة العربية مرتبطة بهم تماماً. ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا كانت تسيطر على كثير من المدن الواقعة على شرقي الخليج، فأنى لابن سعود أن يوفق بين أمرين هما أشد ما يكونان تناقضاً وحساسية وخطراً؟.

وجد ابن سعود في هذه الحرب فرصة ذهبية نادرة ينبغي على العرب استغلالها ليستردوا حريتهم، ويستعيدوا قوتهم ونفوذهم، ويعلنوا استقلالهم، فكتب بذلك إلى أمير اليمن، وإلى الشيخ مبارك أمير الكويت، وإلى آل رشيد، ولكنه لم يجد تفهماً لدعوته، ولاذ الجميع بالصمت ما عدا آل رشيد الذين أعلنوا تضامنهم مع الأتراك.

أصبح عبد العزيز الجانب القوي ذو النفوذ والسلطان في الجزيرة فأراد كل واحد من الأطراف المتصارعة أمراء عرب، وتركيا، وبريطانيا، أن يضمه إلى جانبه ويدخله في حلفه، وبعث كل طرف إليه رسله لهذا الغرض، وعادوا جميعاً من حيث أتوا ما عدا مبعوث بريطانيا الكابتن شكسبير الذي بقى عند ابن سعود لأنه كان مكلفاً بإبرام معاهدة معه لصالح بريطانيا، ولكنه سقط قتيلاً في معركة (جراب) التي كانت بين أتباع ابن سعود ضد أتباع ابن الرشيد في ربيع الأول ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م.

أرسلت بريطانيا (برسي كوكس) بدلاً من شكسبير، ورأى ابن سعود أن من مصلحته الانضمام إلى بريطانيا ليواجه بمساعدتها آل رشيد الذين أصبحوا شوكة في جانبه وربما خطراً على إمارته في نجد ولكي يقضي على ما بقى لتركيا من نفوذ داخل الجزيرة العربية وعقدت فعلاً معاهدة القطيف بين الجانبين سنة ١٩١٦م.

في تلك الفترة تمكنت بريطانيا عن طريق مبعوثها (كتشنر مندوبها في مصر، ثم السير آرثر ماكهمون ثم المستر ستورسن، ثم الكولونيل هوجارث، وأخيراً الكولونيل لورانس) من عقد اتفاق مع الحسين بن علي لمصلحتها سنة ١٩١٦م^(١)، وبعد أربعة شهور أعلن أمير الحجاز الثورة على الأتراك العثمانيين ودخل معهم في حرب من اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤هـ / ٢ يونيو ١٩١٦م.

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة في أبريل ١٩١٥م عن طريق المعتمد البريطاني في عدن الميجور جنرال شو مع حاكم عسير محمد علي الإدريسي الذي أعلن الحرب على الأتراك العثمانيين. وهكذا عن طريق هذه المعاهدات اطمأنت بريطانيا أن الجزيرة العربية لن يرتفع فيها صوت معارض لحربها ضد الأتراك العثمانيين، بل حركت هذه القوى أو بعضها لمحاربة هؤلاء الأتراك وطردتهم من الجزيرة والعمل على ضعف مركزهم وتضعف قوتهم أمام بريطانيا،

(١) عرفت باسم اتفاقية الهندو الخمسة الشهيرة.

وسوف تعمل بريطانيا على ضرب هذه القوى العربية بعضها ببعض عن طريق توسيع هوة الخلاف بين حكامها، فقد انتهزت بريطانيا الخلاف الواقع بين أمير الحجاز الحسين بن علي، وبين أمير نجد عبد العزيز بن سعود بخصوص تحديد الحدود بين إمارتيهما، وتدخلت بين الرجلين فأرسلت المندوب السامي البريطاني في العراق (برسي كوكس) إلى ابن سعود وعرض عليه أن يكون خليفة للمسلمين، فلم يقبل خشية تفرق كلمة المسلمين، وحرصاً منه على جمع كلمة العرب، ولعلمه أن الحسين بن علي كان يسعى إلى ذلك الأمر ليكون وريث الخليفة العثماني، وقد عرض برسي كوكس هذا الموضوع على الحسين بن علي فقبل به.

هذا الخلاف وهذه الخصومة السياسية بين هذين الأميرين أدت إلى وقوع الحرب بينهما وكانت نتيجة ذلك فتح الحجاز بواسطة أمير نجد ابن سعود، وكانت وقعة (تربة) أولى حلقات هذا الفتح، وكان البادي بالحرب أمير الحجاز الحسين بن علي حيث قاد حملة كبيرة من جنوده سنة ١٣٢٩هـ / م إلى (تربة) واصطحب معه ولديه علياً وفيصلاً، وكان يهدف إدخال هذه المنطقة تحت نفوذه وسلطانه ليحد من نفوذ وسلطان أمير نجد ابن سعود. وعندما وصلت الحملة إلى (الخرمة) أخضعت أهلها بعد قتال بين الجانبين، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الأميرين، وهدأت الأحوال بينهما، وسمح للتجارة وللحجاج بالانتقال بين الحجاز ونجد. ولكن حادثة شخصية وقعت بين عبد الله بن الحسين بن علي، وبين خالد بن لؤي الذي يتصل بصلته نسب إلى عائلته، واضطرته إلى العودة (اليعس) إلى ولايته في (تربة) واعتصم بها، واتصل بأمير نجد ليكون له عوناً إن أراد أمير الحجاز الحسين بن علي بشر ثم ما لبث ابن لؤي أن أعلن استقلاله بولايته في (تربة) عن إمارة الحجاز ونزع عنه سلطان الحسين بن علي، الذي ثارت ثائره وأرسل عدة حملات عسكرية مزودة بأسلحة حديثة في ذاك الوقت ولكن ابن لؤي تمكن من هزيمتها وإبادة بعضها.

لجأ أمير الحجاز الحسين بن علي وولده عبد الله إلى الحيلة والدهاء وكسب الوقت حتى يتمكن من ترتيب جيوشهما المهزومة، فأخذ كل منهما يبعث برسائله إلى أمير نجد ابن سعود، وكانت تفيض مودة وتدعو إلى الصفاء، وعدم التنافر والاختلاف، وكان غرضهما التعمية وتخدير الأعصاب حتى يفاجأ عبد العزيز بن سعود بما يعد له، ولكن أخبار هذه الإعدادات وتحركات جنود الحسين بن علي المتجهة إلى (تربة) وصلت إلى ابن سعود، فلبجأ إلى المندوب البريطاني في العراق مرتين لعله ينصح الأمير الحسين بن علي الذي كان مقرباً من الانجليز لوقوفه إلى جانبهم ومحاربتهم للدولة التركية العثمانية على أمل حصوله على الخلافة.

ولكن المندوب البريطاني لم يفعل شيئاً، فاضطر ابن سعود أن يرسل إلى الحكومة البريطانية نفسها ويخبرها بتحركات جيش الحسين بن علي إلى (تربة) وأن هذا عمل عدائي لا يمكن السكوت عليه، ولم ترسل الحكومة البريطانية له رداً، بل على عادتها صمتت حتى ينجلي الموقف وتقف إلى جوار مصالحها ويبدو لي أن التجاء ابن سعود إلى الحكومة البريطانية كان جس نبض لمعرفة موقفها وإخطارها بتعدي الحسين، وبأنه هو البادئ بالتحرش وبالزحف بالقتال حتى إذا ما أتاحت الفرصة لابن سعود وأنزل ضرباته بجيش خصمه، وقفت بريطانيا على الحياد، ولم تتدخل لصالح الحسين، لأن مصالحها مرتبطة بمصالحه، ومع ذلك سوف تتدخل بريطانيا لمصلحة أمير الحجاز كما سنرى في سياق هذا البحث.

على أية حال تمكنت جيوش الحجاز بقيادة عبد الله بن الحسين عن طريق الخديعة والدهاء أن تدخل (تربة) في ٢٤ شعبان ١٣٣٧هـ / ١٩م بدون أي خسارة تذكر، وأخضعت بعض القبائل المحيط بهذه المنطقة عن طريق التهديد والوعيد.

في هذه الفترة وصل مبعوث ابن سعود يحمل كتاباً إلى عبد الله بن الحسين قائد جيوش الحجاز فأهان المبعوث، وحمله تهديدات ووعد لابن سعود وحليفه

ابن لؤي ووصفهما بنعوت غير كريمة^(١). وكان من الطبيعي أن يبلغ هذا المبعوث حاكم (تربة) وحليف ابن سعود بما قاله وكتبه عبد الله بن الحسين حتى لا يؤخذ على غرة ويعد نفسه لاسترجاع (تربة) ومهاجمة خصومه فيها قبل أن يقصدوه في (الخرمة). وفعلاً تمكن ابن لؤي من تقسيم جنوده إلى ثلاث فرق، حدد لكل فرقة منها الموقع الذي تهاجمه بحيث تحيط هذه الفرق الثلاث بجيش الحجاز من كل جانب، ونجحت الخطة وأنزلت هذه الفرق الهزيمة الشنيعة بجيش الحجاز وقتلت من جنوده خمسة آلاف، وفر عبد الله بن الحسين في عشرين رجلاً من أتباعه بعد أن حارب بكل شجاعة وقوة.

كان ابن سعود قد نزل بجنوده (١٢٠٠٠) في الخرمة لنجدة خالد بن لؤي إذا دعت ضرورة الحرب، ومضت عدة أيام ولم تصله أخبار عن الموقعة، فدفعه القلق إلى السير بقواته إلى (تربة) وعلى مشارفها وصلته أخبار انتصار حليفه ابن لؤي وما حدث من هزيمة لجيش الحجاز، فأبدى أسفه وحزنه على القتلى، ودخل المدينة بقواته، وأمر بدفن هؤلاء القتلى، ووزع المغنم كلها على الجنود كعادته.

كان من نتائج هذه الهزيمة لجيش الحجاز أن تلاشت القوة المعنوية للحسين بن علي، كما تلاشت عند جنوده، فترك ميدان المواجهة ومسرح القتال إلى الحرب النفسية فمنع أهل نجد من دخول مكة لتأدية فريضة الحج، ونشر سلسلة من المقالات في جريدة (القبلة) التابعة لحكومته يقلل فيها شأن ابن سعود، فازدادت هوة الخلاف بين الرجلين، ولم يلبث أن طلب تدخل الحكومة البريطانية لرد ابن سعود وقواته عن حدود إمارته، وفعلاً وجه السفير البريطاني في جدة إلى أمير نجد ابن سعود خطاباً أعرب فيه عن عدم رضا بريطانيا واعتبار تقدمه إلى حدود إمارة الحجاز عملاً عدائياً لا تقبله، وعندئذ خشى ابن سعود من التدخل الأجنبي بين حكام المسلمين في البقاع المقدسة، فأمر جنوده بالعودة إلى الرياض في منتصف رمضان ١٣٣٧هـ / ١٩م ولكن إمعاناً في مواصلة الحرب النفسية

(١) راجع نص الخطابات المتبادلة بين عبد الله بن الحسين إلى ابن سعود في سقر الجزيرة ج ١ ص ٩٤ - ٣٠٠.

ضده قام أمير الحجاز الحسين بن علي بمكاتبة سعود بن عبد العزيز بن متعب آل رشيد أمير حائل وألبه على ابن سعود ومناه بالنصر ووعدته الأموال والعتاد والمؤونة إن هو حارب ابن سعود، فنقض أمير حائل الصلح المبرم بينه وبين ابن سعود، وساءت العلاقات بين حائل ونجد وثار الفتنة، واندلعت نار الحروب بين الجانبين، وقتل سعود آل رشيد وتولى عبد الله المتعب الرشيد إمارة حائل، وعقد بن سعود معه اتفاقية صلح جديد ليمنع تدخل الحسين بن علي والأتراك العثمانيين ونفوذهم في إمارة حائل بل جعل لإمارة الرياض ما يشبه الإشراف وحق إبداء الرأي في أمور حائل السياسية فقد تضمنت هذه الاتفاقية شروطاً من أهمها:

١- عدم السماح لآل رشيد بالتعامل مع دولة أجنبية أو عقد معاهدة أو الاتصال بها بأي حال من الأحوال.

وفي مقابل ذلك تتعهد حكومة الرياض بسلامة حكومة حائل والدفاع عنها ضد أي هجوم.

وافق أهالي حائل على شروط هذه الاتفاقية ولم يقبلها حكامها من آل رشيد، وبذلك تجددت الحرب بين الجانبين، وبعث أمير نجد ابن سعود بجيوشه لمهاجمة حائل وما يحيط بها من مدن وقرى ونفذت هذه الجيوش ما كلفت به، وأسقط في يد عبد الله المتعب آل رشيد أمير حائل فأعلن موافقته على شروط الاتفاقية، ولكن عبد العزيز أبي إلا القتال أو الاستسلام وأخذ عبد الله يستعد لخوض معركة فاصلة بينه وبين ابن سعود، ولكن الظروف لم تساعد حيث وقع خلاف بينه وبين ابن عمه محمد بن طلال، فخاف على حياته فخرج في ظلام الليل مع قلة من حاشيته وسلموا أنفسهم إلى القائد المظفر ابن سعود لعلمهم أنهم سيجدون الأمان والاستقرار لديه. وتمكن الأمير الجديد ابن طلال من استعادة بعض الأماكن التي كانت خاضعة لابن سعود، ونشبت حرب بين الفريقين وأحرز

جنود ابن سعود نصراً جديداً على جيش ابن طلال في أول المحرم سنة ١٣٤٠هـ / ١٩
 ١٩م واضطر ابن طلال إلى طلب الصلح ووسط في ذلك السير برسي كوكس،
 فرفض ابن سعود، وقرر أن ينهي هذا الصراع، ويحقن الدماء، وانضم أهالي
 حائل إلى ابن سعود وكاتبوه وأرغموا أميرهم على الاستسلام إنقاذاً للأرواح
 ونجح عبد العزيز وحقق أهدافه ودخل حائل في صفر ١٣٤٠هـ / ١٩.
 فتح عسير (أبها):

كان حاكم عسير بن عائض قد استبد بأهلها وطفى في حكمه بعدما سحبت
 الدولة العثمانية معظم حاميتها من الجزيرة العربية بسبب الحرب، واستنجد أهل
 عسير بابن سعود، فبعث بوفد من العلماء ليقيم النصح إلى هذا الحاكم المستبد،
 ولكنه أساء استقبال العلماء، وردهم رداً قبيحاً، وطلب منهم إبلاغ أميرهم ابن
 سعود أنه إن لم يترك التدخل في شئون أهل عسير فسوف يقوم باحتلال بلده
 ..الخ.

وكان رد ابن سعود على هذه الإهانات تجريد حملة من ألفي مقاتل بقيادة ابن
 عمه عبد العزيز بن جلوي في شعبان ١٣٣٨هـ / أبريل ١٩٢٠م، وأعطاه أوامره
 بتوجيه النصح أولاً، وألا يبدأ بقتال إلا إذا بدأ هذا المستبد به، ودارت رحى
 الحرب بين الجانبين عند منطقة (حجلة) وهزم ابن عائض وفر هارباً مع حاشيته،
 ثم عاد مستسلماً فصحبه ابن جلوي إلى الرياض، حيث عامله ابن سعود معاملة
 طيبة.

أبت شهامة وكرم ابن سعود إلا أن يعفو عن ابن عائض ويعيده إلى عسير
 ليساعد في حكمها ولكنه خان عهده وخالف وعوده، وأعلن العصيان بعد أن
 انضم ابن عمه إليه، وتمكن من استرداد عسير وأسر أميرها فهدد العقيلي عند
 مدينة خميس مشيط. وكان للمساعدات المالية الوفيرة والأسلحة والعتاد الكثير
 الذي قدمه أمير الجحاز الحسين بن علي لابن عائض أثره الكبير في نجاح هذا

المستبد في استعادة عسير.

المرحلة الثالثة: (ضم الحجاز):

أرسل ابن سعود جيشاً يقدر عدده بعشرة آلاف مقاتل مزودين بالأسلحة والعتاد وجعل قيادته لابنه فيصل بن عبد العزيز، وتحرك الجيش في شوال ١٣٤٠ هـ / مايو ١٩٢٢م وفي أثناء زحفه علم أن قوات من بني شهر حلفاء الحسين بن علي، وابن عائض هاجمت أطراف بيضة التابعة لابن سعود، فبعث فيصل بفرقة من جنوده فقتلت مائتين من بني شهر، وفر الباقون هلعاً، وانتشرت أخبارهم فذب الذعر في قلوب أهل عسير وتحصن ابن عائض في بلدته (حرملة) ووصل فيصل بجيشه إلى مشارف أبيها في صفر ١٣٤١هـ / سبتمبر ١٩٢٢م ثم دخلها بدون قتال بعد أن تركها الرجال وهربوا منها ثم واصل فيصل زحفه إلى حرملة، واستبسل ابن عائض في الدفاع عنها، ولكن فيصل شدد هجماته عليها حتى دخلها عنوة بعد أن هرب أهلها منها إلى (القنفذة).

استعان ابن عائض بأمير الحجاز الحسين بن علي الذي أمده بجموع من الجند والسلاح ولكنهم هزموا شر هزيمة، وتكررت محاولة ابن عائض ولكن الهزيمة كانت ملازمة له ولجنوده، فأدرك أنه لا قبل له بقوة عبد العزيز بن إبراهيم والي عسير الذي عينه ابن سعود عليها سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م، فاضطر ابن عائض إلى طلب الصلح ودخل في طاعة ابن سعود وتحت سلطانه.

انتهت الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م / (١٣٣٦، ١٣٣٧هـ) ونودي بالأمير الحسين بن علي أمير الحجاز ملكاً على جميع العرب مقابل وقوفه إلى جانب بريطانيا وثورته ضد الأتراك العثمانيين، وخشي أمير نجد عبد العزيز بن سعود أن تضيق إمارته ويذهب كل ما بذله من جهاد في سبيل توحيد الجزيرة، فكتب إلى حكومة بريطانيا محتجاً على أن ينصب الأمير الحسين نفسه ملكاً على جميع العرب وذكر حكومة بريطانيا بما أعطته من عهود ومواثيق للمحافظة عليه

وعلى إمارته (نجد) من أي تدخل غريب عليه، وتوسّطت بريطانيا بين الرجلين، ولكنها لم تنل من النجاح إلا قليلاً.

لجأ أمير نجد ابن سعود إلى الحرب النفسية وإلى نشر الدعوة الوهابية وإلى الاتصال بأهل الحجاز وعلمائه فمالت إليه قلوب بعض القبائل وقصدته وفود متعددة في الرياض، وأصبح ذكره عالياً في الحجاز، فثارت ثائرة الأمير الحسين ابن علي واعتبر هذه الأمور تدخلاً سافراً من جانب ابن سعود في شئون إمارة الحجاز وتحريضاً لأهلها لنشر الدعوة الوهابية بينهم، وأمر بمنع أهل نجد من دخول مكة وعدم تمكنهم من تأدية فريضة الحج سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م.

انتهز ابن سعود هذه الفرصة وحاول تصفية الجو بينه وبين أمير الحجاز عن طريق ولده الأمير علي بن الحسين، ولكن الحسين اعتبر مكاتبات ابن سعود تهديّة خواطر وتسكين نفوس، وكان يستدل على ذلك بأن ابن سعود احتل خيبر وتيماء، وتوسع في الجزيرة بعد أن قضى على إمارة آل رشيد في حائل وضمها إليه، وأنه أغرى بعض قبائل الحجاز فأطاعته واستقرت عنده في الرياض، وأنه يضع يده على (تربة والخزعة) ويبسط نفوذه عليهما وهما من صميم الحجاز وليس أمامه بعد ذلك إلا أن يفتح الحجاز ويتملكه كما تملك كل نجد.

حاولت بريطانيا حفاظاً على مصالحها أن توفق بين الزعيمين العربيين، فدعت إلى عقد مؤتمر في الكويت برئاسة الكولونيل نوكس Nox رئيس المعتمدين بالكويت ولم ينجح المؤتمر بينهما. فدعا ابن سعود إلى عقد مؤتمر آخر في الرياض من أهالي مدن نجد وعسير وبعض قرى الحجاز، وانعقد المؤتمر فعلاً في ذي القعدة سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م، وقرر المجتمعون غزو الحجاز وتخليصه من الأمير الحسين بن علي، وتمكين أهل نجد من تأدية فريضة الحج بحد السيف، لأن الحسين قد منعهم للمرة الثانية. وانتظر ابن سعود انتهاء هذا الموسم وعودة الحجاج إلى ديارهم، ورأى بشاقب نظر وسداد حكمته وكفاءته العسكرية

وعبقريته السياسية أن يضم إليه مدينة الطائف أولاً لكي يتخذها مركزاً متقدماً لغزو الحجاز، ولكي يجس نبض الدول الإسلامية والدول الأوربية وخاصة بريطانيا ويتعرف على مواقفهم مما هو مقدم عليه وهو غزو الحجاز، فإذا وقفت هذه الدول ضده تمكن من العودة إلى الرياض وترك الطائف، وإذا أغمضت هذه الدول عيونها ولم تتدخل أصبح دخوله (مكة) أمراً سهلاً وتحركت جيوشه فعلاً من الرياض في منتصف محرم ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، فوصلت إلى مشارف الطائف في أول صفر/ أول سبتمبر ١٩٢٤م دون أن يعلم بتحركاته أمير الحجاز.

اندلعت نار الحرب بشدة وبسرعة بين الطرفين، وكاد جيش الحجاز يحرز النصر لولا انضمام مابه من الأعراب إلى صفوف ابن سعود فتغيرت موازين القتال وانهزم الحجازيون وهرب الحاكم شرف بن راجح ووزير الحربية (صبري باشا) وتبعهم أكابر المدينة، ودخل البدو البيوت واقتحموها ونهبوها وسرقوها، واحتل جنود ابن سعود الأماكن الهامة في المدينة، وبذلك أصبح ابن سعود على أبواب مكة.

بعث الحسين بن علي جيوشاً أخرى بقيادة ولده الأمير (علي) وأمره باسترداد الطائف بأي ثمن وبأن يشدد هجماته على جيش ابن سعود، وفشلت محاولات جيش الحجاز لأن قوات ابن سعود استعملت الحرب الخاطفة في ضرباتها للحجازيين الذين أصيبوا بالهزيمة الفادحة وانسحبوا مع قائدهم تاركين أماكن تحصنهم، ودخل سلطان بن بجاد قائد قوات ابن سعود القصر الذي كان نازلاً فيه الأمير علي بن الحسين وغنم ما فيه من مؤن وذخيرة، وحطم التليفون وهو لا يعرف عنه شيئاً، وبذلك انقطع الاتصال بين علي ووالده الأمير الحسين، مما أجبره على الانسحاب الكامل والعودة إلى مكة.

نتيجة لما وصلت إليه الأحوال في إمارة الحجاز من هزائم متتالية، وما أصاب جنودها من تمزق وحاله نفسية سيئة، اجتمع أقطاب الحكومة فيها من أصحاب الرأي والفكر وطلبوا من الأمير الحسين بن علي أن يتنازل عن الحكم لابنه الأمير علي حتى يمكن عقد الصلح مع أمير نجد ابن سعود، وتهدئة خواطر أهل نجد

الذين منعهم والده من تأدية فريضة الحج لأعوام، وبعثوا بمطلبهم هذا برقية إلى الحسين في يوم ٤ من ربيع الأول ١٣٤٣هـ / ٣ أكتوبر ١٩٢٤م^(١) ووقع عليها مائة وأربعون من كبار رجال الحجاز، وأطلقوا على أنفسهم اسم (الحزب الوطني الحجازي) واختاروا رئيساً لهم هو الشيخ محمد الطويل.

أرسل الأمير الحسن رده على البرقية تواً، وكان رداً دبلوماسياً فهو يقبل التنازل ولكن لغير ولده الأمير علي، وكان غرضه من ذلك كسب الوقت حتى يدبر أموره ويظل على إمارة الحجاز. ودارت مناقشات ومفاوضات بين الحسين ابن علي وبين ممثلي الحزب الوطني وهو يراوغ ويحاول إلى أن أجبره المجتمعون على التنازل فقط، وسوف يختارون من يرونه صالحاً للحكم ويعطونه بيعتهم بذلك، وفعلاً تم لهم ما أرادوا، وولوا علياً على إمارة الحجاز.

اضطربت إمارة الحجاز وانتشرت فيها الفوضى لهذا الخبر بسبب ضعف الأمير علي وعدم قدرته على مواجهة الموقف الصعب مثل والده، فالروح المعنوية لقائد الجيش وجنوده قد خبت، والعاملون في الدوائر الحكومية وجلهم من أتباع الحسين قد انهاروا، والحقيقة أن مطلب الحزب الوطني الحجازي كان خطأ كبيراً عجلاً بانتهيار حكمه وساعد ابن سعود على تحقيق حلمه في ضم الحجاز إليه وتوحيد الجزيرة العربية في مملكة واحدة.

ثم تنازل الحسين بن علي وتولى ابنه علي الحكم يوم ٦ ربيع الأول وسافر الحسين إلى العقبة لأن حكومة مصر آنذاك رفضت نزول الحسين بأرضها خشية من وقوع الفوضى والاضطرابات بها.

أعطى ابن سعود أوامره إلى جنوده في الطائف ألا يدخلوا مكة إلا محرمين ويفرض العمرة، وألا يتقدموا إليها كفاتحين حتى يصل إليهم بنفسه، وكان يهدف من ذلك منع ما وقع منهم في الطائف حيث قتلوا وسلبوا ونهبوا أهاليها.

وصلت قوات ابن سعود إلى (الزما) على بعد ٤٤ كم من مكة، فتركها أمير

(١) راجع أسماء المجتمعين ونصوص البرقيات المرسلة إلى الحسين في سقر الجزيرة ج ٢

الحجاز الجديد علي بن الحسين وانسحب إلى جدة ليحصنها ويتخذها مركز دفاعه ضد بن سعود، ووصلت قوات ابن سعود إلى مشارف مكة في ليلة ١٧ من ربيع الأول ١٣٤٣هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٢٤م ثم دخلوا في الصباح حيث طافوا بالبيت العتيق، وبعد الانتهاء من تأدية العمرة انتشروا في أرجاء مكة المكرمة يضعون أيديهم على دوائر الحكومة فيها دون أي مقاومة، واحتل القائدان (ابن لؤي وابن بجاد) قصر الأمير الحسين بن علي وتكالب البدو على محتوياته ينهبونها ويبيعونها بأبخس الأسعار، ولكنهم لم يقربوا بيوت الأهالي أو محال تجاراتهم.

وصل وفد قليل العدد من أهل جدة وقابل القائدين السعوديين في يوم ٢ ربيع الثاني وطلب هذا الوفد عقد الصلح، ولم يقبل القائدان إلا بخلع الأمير علي بن الحسين من الإمارة، فعاد الوفد إلى جدة.

أرسل القائدان السعوديان إلى قناصل الدول الأجنبية في جدة رسائل يستفسران منهم عن موقف حكوماتهم بالنسبة للصراع القائم بين الحجاز ونجد. وجاءت ردود هؤلاء القناصل بما يفيد التزام حكوماتهم بالحياد التام في الحرب المندلعة بين الجانبين، طالما أن أهل نجد لا يضررون التعرض لرعايا هذه الدول في جدة، واطمأن القائدان، واستقرت جنودهما في مكة في انتظار تعليمات الأمير ابن سعود أو حضوره بنفسه إلى مكة.

طلب الأمير الحسين بن علي من بعض قيادات العالم الإسلامي خارج الحجاز التوسط لإنهاء حالة الحرب بين نجد والحجاز، وتوقيع اتفاقية صلح، فرفضت هذه القيادات التدخل وأرجعت هذا الأمر إلى كافة المسلمين يقررونه في مؤتمر عام، وحاول الأمير علي بن الحسين كذلك مع الأمير ابن سعود ولكنه رفض وقال: إن العالم الإسلامي هو الذي يقرر مصير الحجاز، ووقفت بريطانيا على الحياد التام لا سيما وأنها رأت كفة ابن سعود هي الراجحة وأنه مسيطر على معظم مدن الجزيرة وأن نفوذه قد انتشر بشكل كبير.

ولم يلبث الأمير أن أرسل خطاباً إلى ابن سعود ختمه بالتهديد والوعيد إن لم يجعل أهل نجد من أراضي الحجاز، وأنه قادر على استردادها بحد السيف.. الخ.

وكان رد ابن سعود على هذا التهديد أنه كتب إلى حكام المسلمين في الدول المستقلة يخبرهم بسفره إلى مكة غير باغ ولا آثم، وطلب منهم أن يرسلوا مبعوثيهم لحضور مؤتمر مكة حياً في نشر السلام بين أمم الإسلام.

ووقف أهل مصر جميعاً وراء ابن سعود يؤيدونه فيما ذهب إليه، ويشقون في نواياه الطيبة، ويأملون خيراً فيما يعمل، وتناولت جريدة البلاغ التي تصدر في الإسكندرية على كلمة ابن سعود التي ألقاها في العلماء والأمراء الحاضرين عنده في الرياض قبيل سفره إلى مكة بكلمة أوضحت فيها أن ابن سعود لا يسعى وراء المال أو الجاه، وإنما يريد جعل أم القرى كما كانت في عهد السلف الصالح منبهاً للحكمة وموطناً للشرعة ليصحح بذلك ما دخل عليها من أمور مخالفة للدين ولتقاليد المسلمين وختمت الجريدة مقالها بالثناء على ابن سعود بقولها: «لقد علمتنا الحوادث أن السلطان ابن سعود ما وعد إلا وفى، ولا صمم على شيء إلا نفذ ما استطاع ... الخ.

رأى ابن سعود أنه أحيط بالتأييد التام والتقدير فاتخذ كل الاحتياطات قبل سفره إلى مكة فجعل على بلاده خيره رجاله وأعظمهم شجاعة وحنكة لمواجهة الأخطار، وجعل ابن عمه عبد الله بن جلوى على حدود العراق ليقف أي زحف قادم منها، وجعل على حدود سوريا ابن مساعد لنفس الغرض، وجعل والده الإمام عبد الرحمن رئيساً للجميع يرجعون إليه في كل ما يريدون، ولا يقطعون أمراً إلا بمشورته.

سار موكب ابن سعود متجهاً إلى مكة وفي كل مدينة ينزل بها ينضم أهلها إلى موكبه حتى وصل إلى مكان يسمى (المصلوم أو المصلوات) في يوم ٢٣ ربيع الآخر، فوصله صورة خطاب قناصل الدول الأجنبية في جدة عن موقف

حكوماتهم الحيادي، فكتب ابن سعود إليهم يطمئنهم ويطلب منهم تخصيص مكان معلوم لرعاياهم في جدة حتى يرسل إليهم ثلثة من جنوده لحمايتهم ورعايتهم كما طلب منهم أعلام أهل جدة بأغراضه الشريفة في حفظ السلام وإقرار الطمأنينة بين الناس كما كتب هو إليهم يعطيهم العهد والأمان على أنفسهم وأموالهم إذا ابتعدوا عن الحرب، وتركوا أهل نجد يتصرفون مع حكومة الأمير علي بن الحسين، ثم دعاهم إلى ترك جدة والحضور إلى مكة وسوف يرحب بقدمهم ويكرم نزلهم، وبهذا الأسلوب تمكن ابن سعود أن يأمن جانب أهل جدة ويجذب قلوبهم إليه، وينفرهم من حكومتهم، ومن أميرهم.

لم يلبث ابن سعود أن دخل مكة في اليوم الثامن من جمادى الأولى وسط احتفالات وتحيات وتهليلات وتكبيرات يجمعهم جميعاً هتاف واحد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وفي مكة ألقى ابن سعود كلمة موجزة ضمنها فصاحة العرب وبلاغته حيث شرح لهم حقائق الدعوة الوهابية التي حيكت إشاعات ظالمة حولها، وألقيت كلمات كثيرة في هذا المقام، واجتمع علماء نجد مع علماء مكة وبحثوا في الأصول والفروع، ووقفوا على حقيقة المذهب السلفي الذي نادى به الدعوة الوهابية، وتبين لهم أنها من صميم دين الإسلام، وبذلك اتحدت آراء علماء نجد والحجاز في أمر ما اختلف عليه من أمور المسلمين والعقيدة، ونشروا بياناً اطمأنت به نفوس المسلمين في الجزيرة العربية كلها، وكان بذلك خطوة هامة في تحقيق الوحدة التي عمل ابن سعود لتحقيقها بين إمارات الجزيرة ومدنها وقراها.

تدخل بعض أصدقاء ابن سعود للوساطة بينه وبين الأمير علي بن الحسين الموجود في جدة لإبرام الصلح بينهما، وتبدلت رسائل كثيرة بينه وبين قناصل الدول الأجنبية في جدة ولكن هذه الوساطات جميعاً فشلت، واندلعت نار الحرب بعد وصول جيش ابن سعود إلى مشارف جدة يوم ١٠ جمادى الثانية ١٣٤٣هـ، وكان عدده أربعين ألف جندي، بينما جيش الحجاز ألفين من الجنود، وحاصرت

قوات ابن سعود جدة، ولم تبدأ هذه القوات بالهجوم، ولكن الهجوم بدأ من جانب أهل الحجاز في ١٨ شعبان/ ١٤ مارس سنة ١٩٢٥ واستمرت المعركة حامية الوطيس وأصيب جنود جدة بالهزيمة المرة وقتل منهم الكثير، بينما لم يقتل من جنود ابن سعود سوى خمسين رجلاً ومثلهم جرحى.

تدخل بعض قناصل الدول الإسلامية في جدة لدى الأمير عبد العزيز بن سعود ليقابل وزير خارجية الحجاز الشيخ فؤاد الخطيب لتسوية الأمور وإمكانية عقد الصلح، وتمكن عبد العزيز من جذب الشيخ الخطيب إلى جانبه، واعترافه الصريح بأن أعمال أسرة الأمير الحسين بن علي هي التي أوصلت الحجاز إلى هذه الفوضى وهذا الاضطراب والخراب، وبذلك فشلت وساطته.

عندئذ لجأ حكام الحجاز إلى بريطانيا لتقوم بدور الوسيط بينهم وبين القائد المنتصر ابن سعود وأرسلت الحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٥م / ١٣٤٤هـ إلى عبد العزيز تستطلع رأيه في أمر الصلح فكان جوابه أنه أعطى العالم الإسلامي عهداً بأن يكون الحجاز ومكة ملكاً للمسلمين جميعاً، فأنهى بذلك دورها في الوساطة.

ورأت مصر أن تعرض وساطتها فبعث الملك فؤاد في ربيع الأول وفداً من فضيلة الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي، وعبد الوهاب طلعت (سكرتير الملك فؤاد) ومع الوفد خطاب رقيق للأمير ابن سعود، الذي كان شديد الإعجاب بمصر وشعبها ويقدر مليكها (حينذاك)، وخشى ابن سعود أن تقع جفوة ما بينه وبين مصر إذا هو رفض الوساطة، وإذا قبلها فماذا يقول لجنوده من الإخوان وهم يحاربون منذ تسع سنوات باسم الدين، وهو التشريع الحقيقي بين الحاكم والمحكوم ولرفع ما وقع من ظلم، وما انتشر من فساد بسبب ضعف حكام الحجاز وعدم قدرتهم علي الحكم، ولكنه خرج من هذه الحيرة بأن أسند هذا الموضوع إلى رجل محنك وممتاز في السياسة هو الشيخ حافظ وهبة الذي عالج الموضوع بكياسة

ولباقة مع الوفد المصري، وأقنعه بأن يكون الحجاز للحجازيين وهم وحدهم يقررون نوع الحكم الذي يرتضونه، وللعالم الإسلامي حقوقه في البلاد المقدسة، وأقر عبد العزيز هذا الرأي، وأبدى رغبته في أن يتكفل الملك فؤاد بدعوة مندوبي الدول الإسلامية للاجتماع بهم في مصر ليتشاوروا في هذا الموضوع وما يصلون إليه من قرارات سوف يقوم بتنفيذها، وعاد الوفد المصري إلى القاهرة في ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥م يحمل من الأمير عبد العزيز كتاباً بذلك.

وتعددت الوساطات من دول إسلامية وعربية أخرى، وانتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأرادت أن تسوي بعض الأمور المعلقة بين إمارة نجد وإمارة شرق الأردن من ناحية، وبينها وبين إمارة العراق من ناحية أخرى، لأن تسوية هذه الأمور يثبت أقدام بريطانيا ويمكن نفوذها في هاتين الإمارتين، وكان عبد العزيز ابن سعود من المرونة والحزم وبعد النظر ما مكنه من عقد اتفاقية (بحرة) بينه وبين العراق في نوفمبر ١٩٢٥م، واتفاقية [حذاء] بينه وبين شرق الأردن تم فيها تسوية الأمور المعلقة بينهما وبين نجد، وبذلك لم يعط الفرصة لبريطانيا بالتدخل في شئونه ولو باسم الإمارتين العربيتين.

جرت كل هذه الأحداث والأمير الحسين بن علي موجود في العقبة باعتبارها من أراضي الحجاز فبعث جيشاً من حائل لمهاجمة الحسين بن علي في العقبة، وخشيت بريطانيا أن يمتد لهيب نيران الحرب من العقبة إلى شرق الأردن، فتدخلت لمصلحتها وأمرت الحسين بالخروج في غضون ثلاثة أسابيع، وحاول الحسين الوقوف في وجه بريطانيا ورفض الإنذار الذي وجهته إليه وتمسك بحقه في البقاء على أرض الحجاز في العقبة، ولكن بعضاً من حاشيته نصحوه بالآلا يكون سبباً في نكبة شرق الأردن وبضرورة خروجه من العقبة، فأبدى رغبته بالنزول في حيفا أو يافا ولكن حكومة بريطانيا رفضت مطلبه هذا، وأرغمته على أن يستقل البارجة البريطانية التي أعدت له (ولهي) وأن يقيم في قبرص

وتنكرت لمساعدته لها أثناء الحرب العالمية ووقوفه إلى جانبها. وبذلك أمن ابن سعود معاودة الهجوم على مكة من أميرها السابق، واستقرت له أمور الحجاز خصوصاً بعدما ضم إليه المدينة المنورة، وتنازل له الأمير علي بن الحسين وأصبحت جدة تحت سلطانه وداخله في ملكه، وخرج الأمير علي بن الحسين من جدة مبحراً على بارجة بريطانية كذلك في ٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥م حيث اختار الإقامة في العراق.

وبذلك انتهى الصراع وخمدت نيران الحروب بين نجد والحجاز، ونجح عبد العزيز بن سعود في تحقيق سياسته التي رسمها لتوحيد مدن الجزيرة العربية وإمارتها تحت حكمه، وتكوين دولة واحدة متحدة الكلمة، قوية الإرادة، وأرسى لها سياسة ثابتة الدعائم، وعمل على نشر العلوم والمعرفة، وإدخال عناصر الحضارة إلى بدوها وحضرها، وقد سار أبناؤه على هذا الدوب العظيم من بعده، حتى وصلت المملكة العربية السعودية إلى هذا المركز الدولي العظيم، والسمعة الدينية العالية، فأنشئت بها الجامعات والمدارس والمصانع وحفلت بالمؤتمرات العلمية والاقتصادية والسياسية في كل شئون الحياة.

دكتور / أحمد الشامي

أستاذ التاريخ ووكيل كلية الآداب

الهامش

- ١- أبو النصر: عمر
- سيد الجزيرة العربية ابن سعود، لبنان سنة ١٩٣٥م.
- صاحب الجلالة عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود بيروت - لبنان سنة ١٩٥٣م.
- ٢- بشر: عثمان بن عبد الله.
- عنوان المجد في تاريخ نجد، بغداد - العراق سنة ١٣٢٨هـ.
- ٣- حسين: عبد الله.
- الملك عبد العزيز آل سعود والمملكة العربية السعودية القاهرة سنة ١٩٤٦م.
- ٤- الحفناوي: مصطفى.
- ابن سعود سياسته، حروبه، عن وليمز وارسترونج، المطبعة المصرية سنة ١٩٣٤م.
- ٥- الراشد: صالح عبد الرحمن، إبراهيم، سيد محمد.
- قصة كفاح الملك عبد العزيز، الرياض - السعودية سنة ١٩٧٤م.
- ٦- رضا: محيي الدين.
- لمحة من سيرة الملك عبد العزيز القاهرة ١٩٤٦م.
- طويل العمر الملك عبد العزيز آل سعود القاهرة سنة ١٩٥٠م.
- ٧- الريحاني: أمين.
- تاريخ نجد الحديث، بيروت - لبنان سنة ١٩٢٨م.

- ٨- الزامل: عبد العلي المنصور.
- أصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود بيروت - لبنان سنة ١٩٧٢م.
- ٩- الطائي: محمد بن خليفة بن أحمد البنهاني.
- التحفة البنهانية في إمارات الجزيرة العربية، بغداد - العراق سنة ١٣٣٢هـ.
- ١٠ - عطار: أحمد عبد الغفور.
- صقر الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود، بيروت - لبنان سنة ١٣٩٢هـ.
- ١١- العقاد: عباس محمود.
- مع عاهل الجزيرة العربية، بيروت - لبنان.
- ١٢- الغلامي عبد العزيز.
- الملك الراشد المغفور له عبد العزيز آل سعود، بغداد - العراق سنة ١٩٥٤م.
- ١٣- الفقي: محمد حامد.
- أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمران في جزيرة العرب وغيرها القاهرة سنة ١٣٥٤هـ.
- ١٤- المختار: صلاح الدين.
- تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، بيروت - لبنان سنة ١٥٩٧م.